(مكانة السنة النبوية وجهود أهل الحديث في حفظها وتدوينها)

د. محمد عبد الرب عاطف محمد
أستاذ مساعد . جامعة عدن

د. محمد عوض عوض اليافعي
أستاذ مساعد . جامعة عدن

المقدمة :

الحمدُ للّه الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين والعلماء العاملين؛ الذين رفعوا منارة الهدى والدين، وحملوا راية السنة النبوية بصدق ويقين، ونفوا عنها تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

أمّا بَعْدُ: فإنّ السنة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ هي « الأصل الثاني» للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم، فكثيرٌ من الآيات الكريمة جاءت مجملة أو عامة، فيأتي الحديث الشريف مبيناً أو مخصصاً لها، وقد تعرض حوادث وأمور في حياة الرسول r ، فإذا لم ينزل القرآن ببيانها يأتي الحديث له القول الفصل في هذه القضية وتلك الحادثة.

فالسنة بحق تعدُّ رافداً رئيسياً في الشريعة الإسلامية، ومرآة صافية تعكس الواقع العملي لنداء القرآن، ومنهج الله.

وقد هيأ الله تبارك وتعالى لنا سلف صدق حفظوا لنا جميع ما نحتاج إليه من الأخبار في تفسير كتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا r وآثار أصحابه وقضايا القضاة، وفتاوى الفقهاء، واللغة وآدابها، والشعر، والتاريخ، وغير ذلك، والتزموا وألزموا من بعدهم سوق تلك الأخبار بالأسانيد، وتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد على نقد أخبارهم، وحفظوها لنا في جملة ما

حفظوا من السنة، وعمدوا إلى الأخبار فانتقدوها وفحصوها وخلصوا لنا منها، ما ضمنوه كتب الصحيح؛ وتفقدوا الأخبار التي ظاهرها الصحة ـ وقد عُرفوا بسعة علمهم ودقة فهمهم ما يدفعها عن الصحة ـ فشرحوا عللها وبينوا خللها وضمنوها كتب العلل، وسعوا أيضاً في إماتة الأخبار الضعيفة والكاذبة؛ درءاً عن السنة وحفاظاً عليها، وأرسوا القواعد والاصطلاحات الحديثية المهمة بما يضبط ويحمي السنة من الداخل عليها والطاعن فيها، حتى قال المستشرق المحقق مرجليوث: « ليفتخر المسلمون ما شاؤوا بعلم حديثهم »[1].

مَوضُوعُ البحثِ:

يتمحور موضوع بحثنا حول أمرٍ مهم، يَعرضُ ويَدرسُ عناية الأمة الإسلامية ـ وفي مقدمتها الصحابة والتابعون فمن بعدهم من العلماء وأئمة الحديث ـ بسنة رسول الله r ونقل حديثه، وبيان الجهود المبذولة في حفظها ودراستها وتدوينها بما كان له من أثر بالغ في حفظ الشريعة المطهرة.

وفيه تبيانٌ لمكانة السنة النبوية وجهود العلماء العاملين في رعايتها حق الرعاية؛ إذ حفظوها الصدور، ودونوها في ثنايا السطور، ورحلوا في طلب الأحاديث، وكانت لهم أيادٍ بيضاء في خدمتها.

أهْدافُ البحثِ:

يهدف البحث إلى:

1- إظهار دور أئمة الحديث، والإفصاح عما بذلوه من جهد، وما صادفوه من عناء ومشقة في سبيل حفظ الأحاديث النبوية صدراً أو كتاباً، وما احتاطوا به لحديث رسول الله r من الاستيثاق في رواية الحديث، وشدة التحري في أخذه ونشره، والتثبت من صحة المروي وضبطه، وغير ذلك من صفاته.

[1]- ينظر : عبد الرحمن المعلمي اليماني في مقدمته على " الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم ج1/ ص أ.

2- التأكيد على جملة من أوجهِ الحفظ والعناية بالسنة النبوية مما سلكه علماء السنة في ذلك، يظهر من خلالها الجهد العظيم المبذول في سبيل ذلك، وقد كانت لهم في ذلك اتجاهات عديدة بحيث أنهم لم يُعوّلوا على الذاكرة وحدها في حفظ السنة، بل كتبوها مثلما حفظوها في صدورهم في عهد مبكر.

3- إبراز المكانة العلمية لأهل الحديث وللأمة الإسلامية بين الأمم، وذلك من خلال بيان بعض الطرق المنهجية الدقيقة، والاحتياطات العلمية الفاحصة، لحفظ السنة ونقلها، بما لا نظير له في سائر الملل، حتى صارت أمة الإسلام الرائد الأول في فحص النصوص والتنقيب عن صحتها أو ضعفها.

وفي هذا لفتٌ لنظر طائفةٍ من الشباب العربي المثقف المنخدعين بالمستشرقين الذين ينكرون تدوين الحديث النبوي ويثيرون الشبهات حوله.

أهَميةُ البحثِ:

يمكننا القول بأن أهميته تكمن في عدة أمور:

1- كونه يتعلق بحديث رسول الله r الأصل الثاني للشريعة الإسلامية، ومقدار الجهود المضنية المبذولة لأجل حفظه وصيانته والدفاع عنه تأكيداً لمقامه ومكانته.

2- يُعرّف القارئ بجملة من المعالم الجليلة التي راعاها حفاظ الحديث وأئمة الدين في حفظ السنة النبوية ونشرها، بما يستحث الهمم ويشحذها.

3- **وهو أيضا** : يُؤكدُ أنّ عملية حفظ السنة النبوية وتدوينها قد بدأ في وقت متقدّم بما يدحض شبهة المستشرقين ومن تأثر بهم القائلين بأنه لم يتم ذلك إلا في عهد متأخر عن عصر النبوة.

مَنْهَجُ البحثِ:

تنتمي هذه الدراسة إلى نوع المنهج الاستقرائي والوصفي – في غالبه – وذلك بتتبع واحتواء كثير من المصادر المتعلقة بهذا الموضوع، بقصد الوقوف على أقوال أهل العلم في ذلك واستخراجها ومن ثمّ إبرازها بوجهٍ ملائم وبأسلوب أرى فيه اليسر والسهولة – من الأساليب والمعايير المتبعة لدى علماء الحديث في سبيل حفظ السنة النبوية وصيانتها، ليشمل البحث ما هو أعم من مجرد التركيز على حفظها في الصدور.

خطة البحثِ:

يتكون البحث من ثلاثة مباحث، تحت كل مبحث عدة محاور كالآتي:

المبحث الأول: مكانة السنة النبوية وأهمية دراستها وحفظها.

المبحث الثاني: علماء الحديث مكانتهم ودورهم في حفظِ السنة النبوية.

المبحث الثالث: جهود المحدثين في حفظ السنة النبوية بتدوينها وكتابتها.

المبحث الأول: مكانة السنة النبوية وأهمية دراستها وحفظها

أولاً: تعريف السنة لغة واصطلاحاً

تعريف السنة لغة :

ترد السنة على معان، منها:

1- **الطريقة . سواء أكانت محمودة[1] أم مذمومة .**

ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[2].

2- **وتطلق السنة أيضاً على معنى العناية بالشيء ورعايته .**

ومن ذلك قولهم: « سننت الإبل» أي : أحسنت رعايتها والقيام عليها [3].

3- **وأيضاً يراد بها : تتابع الشيء وتواليه .**

1 - ينظر : ابن منظور في " لسان العرب " مادة (سن) 6 / 395 فما بعدها .
2 - خرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب :الحث على الصدقة ولو بشق تمرة برقم (1017).
3 - ينظر : ابن منظور " لسان العرب " 395/6 .

يقال : سن الماء إذا صبه ووالى في ذلك وتابعه [1] .

تعريف السنة في الاصطلاح:

يختلف معنى السنة اصطلاحاً؛ وذلك لاختلاف علماء الإسلام في فنونهم وأغراضهم حيث إن كل فريق منهم يعطيها مدلولاً خاصاً بها، فهي عند الأصوليين غيرها عند المحدثين والفقهاء وهلم جرا.

وإجمالها على النحو التالي :

أ. السنة عند المحدثين :

هي كل ما أضيف إلى النبي r من قول ٍ أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة سواء أكان ذلك قبل بعثته كتحنثه في غار حراء أم بعدها.[2].

ب ـ السنة في اصطلاح علماء أصول الفقه:

هي « كل ماصدر عن النبي r غيرالقرآ ن الكريم من قول أو فعل أو تقرير مما يصح أن يكون دليلاً لحكم شرعي[3] .

ج-السنة في اصطلاح الفقهاء:

هي الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب كالركعتين قبل صلاة الفجر، وقيام الليل ونحو ذلك[4].

د- السنة في اصطلاح علماء العقيدة والوعظ والإرشاد:

هي ما وافقت الكتاب والحديث، وإجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات وتقابلها البدعة[5].

هذه هي أهم الاصطلاحات المتفق عليها والتي ذهب إليها علماء الشريعة الإسلامية في استعمال كلمة السنة، وهي كما سلف مختلفة المراد تبعاً لاختلاف الموضوع الذي يبحث فيه واختلافهم في الأغراض التي يعني بها كل فئة منهم.

1 ـ ينظر : الفيروز أبادي " القاموس المحيط" مادة " سن " 0239/5

2- ينظر : السيوطي في " تدريب الراوي" 1 / 183 و.194.

3- ينظر : الشوكاني في " إرشاد الفحول" ص 53.

4- ينظر : السباعي ، مصطفى بن حسني في " السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي " ص 48 .

5- ينظر : عمر فلاته في " الوضع في الحديث " 39/1 .

فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواء أثـــبَتَ ذلك حكماً شرعيا أم لا.

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده : ويبين للناس دستور الحياة، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها.

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك .

وما نعنيه بالسنة في بحثنا هذا ما يشمل كل هذه المعاني؛ إذ الكل محفوظ بحفظ الله تعالى وما سخره، من جهابذة الحديث وحفاظه .

فيشمل ذلك الأقوال المأثورة عنه عليه الصلاة والسلام والأفعال والتقارير أو الصفات الخلقية أو الخُليقة، والأحكام الشرعية الثابتة عنه، والعقائد.

ثانياً : منزلة السنة النبوية ومقامها بين العلوم وحجيتها والأمر باتباعها:

لا تخفى مكانة السنة النبوية « الحديث » في التشريع الإسلامي وأثرها في الفقه الإسلامي منذ عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة حتى عصور أئمة الاجتهاد واستقرار المذاهب الاجتهادية، مما جعل الفقه الإسلامي ثروة تشريعية لا مثيل لها في الثروات التشريعية لدى الأمم جميعها في الماضي والحاضر، ومن يطلع على القرآن والسنة يجد أن للسنة الأثر الأكبر في اتباع دائرة التشريع الإسلامي وعظمته وخلوده، مما لا ينكره كل عالم بالفقه ومذاهبه.

لقد انتهى العلماء المحققون من السلف والخلف رحمهم الله تعالى إلى أن الحديث النبوي الشريف والذي صحَّ حسب القواعد الحديثية حجة على جميع الأمة، وقد أجمعوا على ذلك إجماعاً استناده الكتاب الكريم، والسنة النبوية.

وعندما خاطب الله نَبيَّهُ بقوله: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاس مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[سورة النحل، الآية: 44] نَبَّهَ المؤمنين إلى مكانة السنة في التشريع؛ فإن أقوال الرسول وأعماله تبين المراد من القرآن، إذ تفصل ما أجمله، وتقيد ما أطلقه، وتخصص فيه ألفاظ العموم، وتعين ما لم يعينه من المقادير والحدود والجزئيات .

فللسنة أن تنفرد في التشريع حين يسكت القرآن عن التصريح، ولها أن تقوم بوظيفة التبيان حين يترك لها التفصيل والتوضيح ، فالسنة النبوية الأصل الثاني للتشريع ، وهي في الأصل وحي من الله تعالى إلى رسوله r كما قال تعالى : [وما ينطق عن الهوى # إن هو إلا وحي يوحي # علمه شديد القوى] النجم: آية 3 -5 .

وقال تعالى : [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] الحشر: آية 7، وقال تعالى : [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] الحشر:90 .

فقد دلت الآية الأولى صراحة على أن كل ما نطق به الرسول r إنما هو وحي منزل من الله تعالى ، وأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق بشيء من أمر الدين وتبليغ الرسالة من عند نفسه ولا يجوز أن يكون ذلك لا عقلاً ولا شرعاً.

أما الآية الثانية فهي صريحة وبينه في أمر الله تعالى المؤمنين بأخذ كل ما جاء به النبي r من كتاب وسنة ، فهي تدل دلالة واضحة على أن كل ما جاء به النبي r شرع يجب التمسك به والانقياد له.

وأما الثالثة فهي إخباره عز وجل أنه تكفل بحفظ ما أنزله بوحيه من الذكر الحكيم من قرآن وسنة، وأن ذلك كله شرعه ووحيه المنزل على رسوله r .

أما القرآن المجيد فقد فصّل العلماء في مباحث « علوم القرآن الكريم » السبل التي قيّض الله عز وجل لكتابه من عباده العلماء المتقين من يحفظه بصدره وقراطيسه ، ثم من قام ويقوم على جمعه وكتابته بكل وسائل الدقة والإتقان

وأما الحديث فقد قيض الله تبارك وتعالى له من يبذل قصارى جهده في حفظه وجمعه وتدوينه كما يتضح ذلك من خلال الاطلاع على جهود أهل الحديث المعتنين به المشتغلين بحفظه، وليس ذلك إلا حفظا للسنة النبوية المطهرة .

وليس أدل على ذلك من كون السنة النبوية الزكية مكملة للقرآن الكريم من الناحية التشريعية قوله r :« ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه»[1].

فالسنة النبوية وحي من الله تعالى، وهي محفوظة كالقرآن الكريم تماماً، وهي أصل أصيل، ومصدر رئيسي بعد القرآن الكريم لا يستغنى عنها ولا يقدر أحد على طاعة الله تعالى من دونها.

• **قال الإمام النووي**[2]: **«إن من أهم العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات، أعني معرفة متونها، صحيحها وحسنها وضعيفها، وبقية أنواعها المعروفات، ودليل ذلك: أن شرعنا مبني على الكتاب العزيز والسنن المرويات، وعلى السنة مدار أكثر الأحكام الفقهيات، فإن أكثر الآيات الفروعيات مجملات، وبيانها في السنن المحكمات، وقد اتفق العلماء على أن من شرط المجتهد من القاضي والمفتي أن يكون عالماً بالأحاديث الحكميات فثبت بما ذكرناه: أن الاشتغال بالحديث من أجل العلوم الراجحات، وأفضل أنواع الخير، وآكد القربات »**[3].

---

[1]- أخرجه أحمد في "المسند" برقم 17174 وأبو داود، كتاب السنة ، باب : في لزوم السنة برقم 4604 : عن المقدام بن معد يكرب – رضي الله عنه – ، و صححه الألباني في "الصحيحة" 2/ برقم 882 و" تخريج المشكاة " 35/1.

[2]- هو : الإمام الفقيه الحافظ الزاهد أحد الأعلام يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا الحزامي النووي - بغير ألف ويجوز إثباتها - كان شديد الورع والزهد ولم يتزوج ، له تصانيف نافعة في الحديث والفقه وغيرها ت سنة 676هـ .
ينظر : ابن قاضي شهبة، " طبقات الفقهاء الشافعية " 473/1. والسيوطي في " طبقات الحفاظ " ص539.

3- ينظر : النووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج " 4/1.

- **وقال صديق حسن خان[1]: «اعلم أن آنف العلوم الشرعية ومفتاحها، ومشكاة الأدلة السمعية ومصباحها، وعمدة المناهج اليقينية ورأسها، ومبنى شرائع الإسلام وأساسها، ومستند الروايات الفقهية كلها، ومآخذ الفنون الدينية دقها وجلها، وأسوة جملة الأحكام وأسها، وقاعدة جميع العقائد وأسطقسها، وسماء العبادات وقطب مدارها، ومركز المعاملات ومحط حارها وقارها هو علم الحديث الشريف الذي تعرف به جوامع العلم، وتنفجر منه ينابيع الحكم، وتدور عليه رحى الشرع بالأسر، وهو ملاك كل في وأمر، ولولاه لقال من شاء ما شاء، وخبط الناس خبط عشواء، وركبوا متن عمياء، فطوبى لمن جد فيه، وحصّل منه على تنويه، يملك من العلوم النواصي، ويقرب من أطرافها البعيد القاصي.**

فكلام رسول r أشرف الكلم وأفضلها، وأجمع الحكم وأكملها كما قيل: « كلام الملوك ملوك الكلام» وهو تلو كلام الله العلام، وثاني أدلة الأحكام.

فهذا العلم المنصوص، والبناء المرصوص، بمنزلة الصراف لجواهر العلوم، عقليها ونقليها... من انقاد لها فقد رشد واهتدى، وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض عنها وتولى فقد هوى وغوى، وما زاد نفسه إلا التخسير فإنه r نهى وأمر، وأنذر وبشر، وضرب الأمثال وذكّر، وإنها لمثل القرآن بل هي أكثر عدداً.

فالعلم في الحقيقة هو علم السنة والكتاب، والعمل بهما في كل إياب وذهاب ؛ ومنزلته بين العلوم منزلة الشمس بين كواكب السماء 000 فياله من علم سيط بدمه الحق والهدى، ونيط بعنقه الفوز بالدرجات العلى »[2].

1- هو : محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لُطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيّب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) وتعلم في دهلي. له نيف وستون مصنفا بالعربية والفارسية والهندسية. منها بالعربية (حسن الأسوة في ما ثبت عن الله ورسوله في النسوة) و (أبجد العلوم) ت 1307ه) ت سنة 1307هـ . ينظر : الزركلي في " الأعلام " 167/6 .

2 - ينظر : صديق حسن في " الحطة في ذكر الصحاح الستة " 36/1 .

وخلاصةُ القول: إن الأئمة قاطبة مجمعون على أن السنة النبوية تتبوأ المكان الأسمى بعد كتاب الله عز وجل، وأن لها المقام الأعلى بين العلوم، وهي حجة يجب اتباعها والانصياع لها في القضاء والافتاء وغير ذلك .

ولا غرابة في ذلك ؛ فإنها المعين الصافي الذي لا ينضب بعد كتاب الله تعالى، فيها يجد المجتهد مجالاً واسعاً لاستنباط الأحكام، وهي مفتاح القرآن، ومرقاة الوصول إلى فهمه على وجهه، فقد فصلت ما أجمل، وأحكمت ماتشابه، وكملت ما سكت عنه، وأكدت ما حكم به، جعلنا الله من المتبعين لسنة رسول الله r والعاملين بها إنه جواد كريم .

ثالثاً : آراء بعض المستشرقين في السنة النبوية ونقدها والرد عليهم

إن المتأمل لما سلف ذكره في بيان منزلة السنة النبوية ومرتبتها بين العلوم ليدرك إدراكا تاماً ما حظيت به من مكانة مرموقة لا نظير لها بعد كتاب الله تعالى، لا ينكر ذلك منكر، ولا يشك فيه شاك .

ومن ثم فإن دعوى الاقتصار على القرآن الكريم من دون السنة النبوية هي انحراف عن المنهج القويم، وزيغ عن سبيل المؤمنين، وقد بين رسول الله r أنه سيأتي أناس يدعون بهذه الدعوى، وأنهم ليسوا ممن يعظم الله ولا رسوله r وأنهم يريدون بذلك نبذ شريعة الله تعالى وتعطيلها.

قال عليه الصلاة والسلام: « يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله r مثل ما حرم الله تعالى»[1] .

وقد وقع ما أخبر به عليه الصلاة والسلام فظهر «القرآنيون» الذين ينادون خبثاً ومكراً وإفساداً للشريعة بالاقتصار على القرآن الكريم دون ما سواه، ليثبتوا من هذه الأمة وليحدثوا البلابل والقلاقل في أوساطها [والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون] يوسف: 21، كما وجد من

1 - سبق تخريجه ص 5 .

المستشرقين في هذه الأعصار من يزعم عدم صحة النصوص النبوية ويُكذبون النبي محمداً r دون علم أو سابق عقل وادراك.

فمن ذلك أن « جولد زيهر » goldziher يرى أن أكثر الأحاديث النبوية موضوعة ؛ لأنها نتيجة للتطور الإسلامي السياسي الاجتماعي ، وأن الصحابة والتابعين لهم يد في وضع هذه الأحاديث .

كما يرى أن أصحاب المذاهب ينتحلون أحاديث لدعم مذهبهم؛ بل إنه بعضهم عزز آراءه العقدية والفقهية حتى في العبادات بأحاديث ظاهرة لا تشوبها أية شائبة.

كما يظن اختلاف وجهات نظر النقاد المسلمين والأجانب في التسليم بصحة الأحاديث من عدمها.

وأخيراً يصور الكتب الستة الصحاح بأنها ضم لأنواع من لأحاديث التي كانت مبعثرة رأى جامعوها أنها صحيحة.

وما ذكره أتفه من أن نفندها أو نناقشها وننشغل بها، وبقراءتك لما سطر هنا في بيان «جهود علماء الحديث في حفظ السنة النبوية» تدرك الجواب عنه، بما قننه الأئمة والمحدثون من القوانين الصارمة في حفظ السنة والأثر بما لا نظير له في ملة من الملل، وما شرطوه في صحة الحديث وقبوله، وما ذكروه وكشفوه من الأحاديث الموضوعة الباطلة دفاعاً عن السنة وتنقية لها من كل دخيل وشائبة.

وأصلُ فرية هذا الحاقد ومن على شاكلته يتناول جانبين أساسيين :

أحدهما: أن النبي محمداً إنما هو أحد المصلحين الذين كان لهم تأثير في مجتمعهم، مازالت يده الإصلاحية ممتدة على مر السنين والأيام، فهو ليس بنبي ولا رسول من عند الله بل كل ما أتى به من اختراعه وابتكاره لا وحياً من الله تعالى.

والأمر الثاني: أن أصحابه كانوا من خيرة معاونيه على تدعيم وجهات نظره، واستكمال منهجه حتى مكن الله لهم في الأرض، وأن السيف كان أداتهم في تدعيم آرائهم ومعتقداتهم !!

تلك هي خلاصة ما يرونه في الإسلام ونبي الإسلام فيما يبدونه من آراء .

ولكن الحق أن هؤلاء إن لم يكونوا من اليهود فهم على كل حال من سلالة القردة والخنازير[يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون] البقرة : 146.

هذا هو باطنهم - في الحقيقة – والذي لم يستطيعوا أن يجهروا به حتى لا يفلت زمام السيطرة والجاه الزائف والسلطان الكاذب من بين أيديهم .

وقد تبع هؤلاء بعض المسلمين ممن قل فقههم، وضعف يقينهم وإيمانهم، فاغتروا وانبهروا بما لدى الغرب من حضارة مادية ولكنها خاوية المعاني والقيم، وما وصلوا إليه من تطور تقني وثقافي في ظنهم وعلمهم وهو الحقيقة سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

رابعاً: أهمية حفظ السنة النبوية وثمار ذلك

إنّ مما لا ريب أن العناية بالرواية وحفظ حديث رسول الله r له الأهمية البالغة، كونه يُعد حفظاً لشريعة الله تعالى التي ارتضاها لعباده المؤمنين وهي متمثلة في الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة.

ولذلك نجد جملة لا بأس بها من النصوص والأقوال تحث على حفظ الحديث وتبليغه ونشره في أوساط المجتمعات:

1- **قال الله تعالى : [وما آتاكم الرسول فخذوه] الحشر**:7.

- **قال بعض أهل العلم**: **إن هذا الأمر عام في حق أهل زمانه، ومن جاء بعدهم، ولا وصول إلى من بعدهم إلا بالتبليغ »**[1].

2- **وقال عليه الصلاة والسلام في خطبته : « فليبلغ الشاهد الغائب»**[2].

3- **وقال عليه الصلاة والسلام: « نضر الله عبداً سمع مقالتي، فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»** [1].

---

[1] - ينظر : البغوي في " شرح السنة " 235/1 0

2 - أخرجه البخاري ، كتاب الحج ، باب : الخطبة أيام منى ، برقم 1741 ومسلم ، كتاب : القسامة ، باب : تغليظ تحريم الدماء برقم 1679 كلاهما عن أبي بكرة - رضي الله عنه - 0

- **قال أبو حاتم ابن حبان**[2]: «**الواجب على كل من ركّب الله فيه آلة العلم أن يرعى أوقاته على حفظ السنن رجاء اللحوق بمن دعا لهم الرسول r ؛ إذ الله جل وعلا أمر عباده باتباع سنته، وعند التنازع الرجوع إلى ملته حيث قال: [فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول]النساء :59.ثم نفي الإيمان عمن لم يحكمه فيما شجر بينهم فقال:[فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً] النساء: 65. فلا نحبُ لمن أشعر الإيمان قلبه أن يقصر في حفظ السنة بما قدر عليه، حتى يكون رجوعه عند التنازع إلى قول من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى r . جعلنا الله منهم بمنه**»[3].

وقال أيضاً: «معرفة السنن من أعظم أركان الدين، وأن حفظها يجب على أكثر المسلمين ... فالواجب على كل من انتحل العلم أو نسب إليه، حفظ سنن المصطفى r والتفقه فيها »[4].

- **وقال الخطيب البغدادي**[5]: «**ولما كان ثابت السنن والآثار، وصحاح الأحاديث المنقولة والأخبار، ملجأ المسلمين في الأحوال، ومركز المؤمنين في الأعمال؛ إذ لا قوام للإسلام إلا باستعمالها، ولا ثبات للإيمان**

---

[1] - أخرجه أحمد برقم 21630 وأبو داود 3660 والترمذي 2656 وابن ماجه 187 والدارمي 229 وابن حبان 454/2 – 680 وسواهم عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - .
وصححه ابن حبان والعراقي والألباني 0
وينظر : الألباني في "صحيح الجامع الصغير" برقم 11709 .

2 - هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي ، الإمام العلامة المحدث شيخ خراسان ، صاحب " الصحيح " و " الثقات " وغيرها ، ت سنة 354هـ .
ينظر : الذهبي في " سير أعلام النبلاء " 12/ 246 وابن العماد في " شذرات الذهب " 4/ 285 .

[3] - ينظر : ابن حبان في " المجروحين " ص 5 0

4 - ينظر : ابن حبان في" الثقات" 3/1 و8 0

5 - هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، الحافظ الإمام المحدث المتحرّز، صاحب التصانيف المنتشرة في الإسلام ، مثل " تاريخ بغداد " و" الكفاية في علم الرواية " وغيرها ، ت سنة 463هـ.
ينظر: الذهبي " سير أعلام النبلاء" 13/ 590 وابن العماد في" شذرات الذهب في أخبار من ذهب" 5/ 262.

إلا بانتحالها، وجب الاجتهاد في علم أصولها، ولزم الحث على ما عاد بعمارة سبيلها ..»[1].

وقال أيضاً: «وقد أخبر النبي r بأن في أمته ممن يجيء بعده كذابين، فحذر منهم، ونهى عن قبول رواياتهم، وأعلمنا أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، فوجب بذلك النظر في أحوال المحدثين، والتفتيش عن أمور الناقلين، احتياطاً للدين، وحفظاً للشريعة من تلبيس الملحدين »[2].

فهذه النقول وغيرها كثير يعسر حصرها تؤكد لنا تأكيداً بيناً على أهمية حفظ السنة النبوية، وفرضية العناية بحفظ حديث رسول r، والاهتمام بمعرفة أحوال الرواة ونقلة الحديث احتياطاً للدين وحفظاً للشريعة المطهرة .

أقول: ولعل أبرز ثمار هذا الحفظ المبارك ما يلي :

1- **أنه بحفظ السنة النبوية وتوثيقها يحفظ الأصل الثاني للتشريع، والذي بدونه لا يستقم الأمر على وجهه، ولا يقوم العدل والحق بميزانه.**

ولذلك أعطاها علماء الحديث غاية اهتمامهم، وبذلوا من أجل الحديث وأسانيده كل ما في وسعهم، حتى رحلوا المسافات البعيدة على بعد الشقة، وعظم المشقة، طلباً للحديث وحفظاً له، وبحثاً عن أسانيده ومظانه .

2- **أنه بحفظ السنة النبوية وبثها ونشرها في الخلق ينتشر العلم والإيمان والخير في أوساط المجتمعات فما عُرف في تاريخ البشرية معلماً ولا حكيماً ولا مُصلحاً كمحمد r بشهادة القريب البعيد، والعدو قبل الصديق فكم أرسى من تعاليم، وكم قوّم من أخلاق ، وكم بث من معارف وعلوم، وكم ذكر ووعظ، ونصح وأدب، وأرشد وحكم، ونهى وأمر وأنذر وبشر، بما لا يوجد لغيره، ولا يتم لسواه .**

1 - ينظر : الخطيب البغدادي في " الكفاية " ص3.
2- ينظر : الخطيب البغدادي في "الكفاية" ص 3.

3- **3ـ أن الحافظ للسنة ينال بركة العلم بها، وينال بركة دعاء النبي r له بالنضارة في وجهه يوم القيامة، كما ينال كذلك رحمة الله جل وعلا إذا سمع حديثاً صحيحاً وحفظه ثم أداه وبلغه الناس كما سمعه كما سلف ذكره في الحديث: "نضر الله عبداً سمع مقالتي ... " .**

4- **أن بحفظ السنن عنه r وتدوينها تزول البدع والضلالات ولذلك قال بعض السلف : من أحيا سنة فقد أمات بدعة .**

فكلما حفظ الناس السنة وعملوا بها، ذهبت عنهم البدع واضمحلت وحلت السنة بدلاً عن البدعة، وما لم يهتموا بهذا الأمر ويعطوه حقه تبدلت السنة بالبدعة، والهدى بالضلال . نسأل الله العافية.

5- **أنه يعود للأمة الإسلامية مجدها وعزها ورفعتها، فإن الله تعالى يرفع هذه الأمة ويعلى مكانتها كلما كانت متمسكة بكتابه وسنة رسوله r .**

6- **ترسيخ محبة النبي الكريم r في النفوس، والتأكيد على التأسي به والتمسك بهديه، لاسيما ونحن نلحظ اليوم حملة شعواء على الإسلام ونبي الإسلام r ، فالأمة بحاجة إلى نشر هديه وتعاليمه وأحكامه وتعاملاته وأخلاقه وشمائله الكريمة تبياناً للحق وردعاً للباطل .**

كل هذه الثمار وسواها عديد وعديد تُظهر لنا وبوضوح أهمية حفظ السنة النبوية والعناية بها، وأنه ينبغي شحذ الهمم في سبيل ذلك ولأجله.

المبحث الثاني

مكانة علماء الحديث وجهودهم في حفظِ السنة النبوية

أولاً مكانة علماء الحديث وشرفهم

إن من شرف علم الحديث أن يَشْرُفَ به أهله وحاملوه، فعلماء الحديث تشملهم النصوص المتعددة في الكتاب السنة الدالة على فضل العلم وأهله بل هم أولى الناس بها، كيف لا وهم الحافظون الحاملون لسنة خير خلق الله r .

ففضلهم عظيم على الأمة، وشرفهم كبير وجليل، وقد سطرت الكتب في مدحهم، وبالغ الثناء عليهم نثراً وشعراً ما يطرب النفس ويسرها .

ـ قال يزيد بن زريع[1]: «**لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد**»[2] .

ـ وقال سفيان الثوري[3]: « **الملائكة حراس السماء، وأصحاب الحديث حراس الأرض**»[4].

ـ وقال أحمد بن حنبل [5]: « **وإن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال**[1] **فمن يكون ؟!**»[2].

1ـ هو يزيد بن زريع ـ بتقديم الزاي مصغر ـ العيشي البصري أبو معاوية الحافظ المجود ، ثقة ثبت ، ت سنة 182هـ .
ينظر: المزي في" تهذيب الكمال في أسماء الرجال " 32/ 134 والذهبي في "سير أعلام النبلاء " 7/ 545. وابن حجر العسقلاني ، في " تقريب التهذيب " 2/ 671 .

2ـ ينظر : الخطيب البغدادي في " شرف أصحاب الحديث " ص 44 .

3ـ هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله الكوفي ، ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة ، روى الجماعة، ت سنة 161هـ .
ينظر : المزي ، في " تهذيب الكمال " 11/ 154 والذهبي، في "سير أعلام النبلاء " 7/ 174 وابن} حجر العسقلاني في " تقريب التهذيب" 1/ 216 .

4ـ ينظر : الخطيب، « شرف أصحاب الحديث » ص44 .

5ـ هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي ، نزيل بغداد ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة المشهورين، ثقة حافظ فقيه حجة ، روى له الجماعة ، ت سنة 241هـ .
ينظر : المزي في "تهذيب الكمال" 1/ 437 والذهبي في "سير أعلام النبلاء " 9/ 434 وابن حجر العسقلاني في " تقريب التهذيب " 1/ 20.

- **وقال أبو حاتم ابن حبان: « فرسان هذا العلم الذين حفظوا على المسلمين الدين، وهدوهم إلى الصراط المستقيم، الذين آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الديار والأوطان في طلب السنن في الأمصار، وجمعها بالوجل والأسفار والدوران في جميع الأقطار، حتى إن أحدهم ليرحل في الحديث الواحد الفراسخ البعيدة، وفي الكلمة الواحدة الأيام الكثيرة؛ لئلا يُدخل مُضل في السنن شيئاً يُضل به، وإن فعل فهم الذابون عن رسول الله r ذلك الكذب، القائمون بنصرة الدين[3].**

فهذه عناية هذه الطائفة بحفظ السنن على المسلمين، وذب الكذب عن رسول رب العالمين، ولولاهم لتغيرت الأحكام عن سننها حتى لم يكن يعرف أحد صحيحها وسقيمها، والملزق بالنبي r والموضوع عليه مما روى عنه الثقات الأئمة في الدين»[4] .

والمقصودُ أنَّ النقل عن النبي r لا يمكن أن يتوصل إلى إدراكه إلا بالعلوم التي تخدم ذلك، وهي علوم الحديث : أصوله ومصطلحه، فالأمر الإلهي بطاعة النبي r والاقتداء به متضمن أمراً إلهياً بتعلم علم الحديث؛ لأنه لا سبيل إلى امتثال الأمر الأول إلا بعد امتثال الأمر الثاني، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وإذا كان فهم القرآن الكريم، وطاعة الله تعالى ورسوله r والعلم بأحكام الدين وشرائعه وآدابه لا يكون إلا بعلوم الحديث؛ علمت ما هي مكانة هذه العلوم ! وفي أي قمة من مراتب العلوم تكون ! ثم علمت شرف أهل الحديث ! وعظيم فضلهم وكبير أثرهم في الأمة.

1- الأبدال : جمع بَدَلَ وبدلْ وهم : الأولياء والعباد والصالحون، سموا بذلك ؛ لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر.
ينظر : ابن منظور في " لسان العرب " 1/ 344 مادة : بدل. والزبيدي في " تاج العروس من جواهر القاموس" 14/ 46 . مادة : بدل .
2- ينظر : الخطيب ، " شرف أصحاب الحديث " ص 50.
3- ينظر : ابن حبان في" المجروحين" 31/1.
4- المصدر السابق 35/1 .

وقد جاءت السنة نفسها ببيان فضل أهل الحديث وشرفهم، في أحاديث وآثار كثيرة؛ حتى صنف الخطيب البغدادي كتاباً في ذلك بعنوان " شرف أصحاب الحديث".

فأهل الحديث كثر الله تعالى سوادهم ورفع عمادهم، لهم نسبة خاصة ومعرفة مخصوصة بالنبي r ، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين، فضلاً عن الناس أجمعين؛ لأنهم الذين لا يزال يجري ذكر صفاته العليا، وأحواله الكريمة، وشمائله الشريفة على لسانهم، وقد قال الله تعالى: [يوم ندعو أناس بإمامهم] الإسراء: 71 .

قال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ؛ لأن إمامهم النبي r » [1].

وأنشد في الثناء عليهم وبيان مكانتهم :

عليك بأصحاب الحديث فإنهم ... خيار عباد الله في كل محفل
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم ... نجوم الهدى في أعين المتأمل
جهابذة شم سراة فمن أتى ... إلى حيهم يوماً فبالنور يمتلي
لقد شرقت شمس الهدى في وجوههم ... وقد رهم في الناس لازال يعتلي
فلله محياهم معاً ومماتهم ... لقد ظفروا إدراك مجدٍ مؤثلِ
وقال الإمام الشافعي مقالةً ... غدت منهمُ فخراً لكل محصل
أرى المرء من أهل الحديث كأنه ... رأى المرء من صحب النبي المفضل
عليه صلاة الله ماذر شارقٌ ... وآل له والصحب أهل التفضلِ [2]

ثانياً: أيادي المحدثين البيضاء على الأمة وشكر مساعيهم

«من أين للبليغ أن يُحصي أيادي المحدثين وحسن بلائهم، وهم الذين عشقوا الهدي النبوي دون العالمين، فتتبعوه ممن بدا وحضر، وكابدوا لأخذه أهوال السفر !! فكم جابوا صحاري تتلظى تلظي الرمضاء ، وقطعوا العمران فيافي تستدعي اليأس، وترع الأحشاء! فحفظوا ووعوا، ولعهد النفر للتفقه في الدين رعوا، ودفعوا عن الدين صنع الوضاعين، وانتحال المفترين،

1 - ينظر : المباركفوري في " تحفة الأحوذي" (المقدمة منه) ص 12.
2 - الأبيات للسيد المرتضى الحسيني في أماليه الشيخونية . ينظر : المصدر السابق ص 17.

وذبوا الكذب عن كلام الرسول الصادق، بما مهدوه من تحري كل راو موافق ، فدونوا ما سمعوه بالسند فراراً عن الرمي باتباع الأهواء ، وتحكيم الآراء، فاستبرؤوا لدينهم بجليل هذا الاحتياط ودربوا الأمة على التثبت في توثيق عرى الارتباط ! رحماك اللهم !

فالاعتراف بمآثرهم الحسنة أمر واجب، وشكر فضلهم لا يقصر عنه إلا من هو عن الأتباع ناكب، أفليست دواوينهم بعد القرآن دعائم الإسلام التي قامت عليها صروحه، وأعضاء الدين التي بان منها صريحه ؟ لا جرم لولا أخذهم بناصية ما دونوه من صحيح السنة، لانثالت على الناس جراثيم الأباطيل المستكنة، التي رزئ بها الدين، في عصر الوضاعين المنافقين ، الذين دخلوا في دين الله للتشويش، فرد الله كيدهم بتنقيب المحدثين عن خرافاتهم، ودأبهم في التفتيش حتى أشرقت شموس صحاح الأخبار، وانبعثت أشعتها في الأقطار، وتمزقت عن البصائر حُجُب الجهالة، وأغشية الضلالة »[1].

«فكانت السنة النبوية المشرفة وفقه السلف الصالح وذبهم عنها وحفظهم إياها، هي الحصن الحصين للأمة الإسلامية من كل ما واجهت من فتن وابتلاءات، وباءت جهود أعداء الدين على أنواعهم بالفشل أمام ثبات المحدثين على عقيدة السلف، وحبهم للسنة ومحبتهم الصحابة ومن تبعهم، وجهدهم المتواصل في خدمة السنة حفظا وتعليما وتدريسا وكتابة، فمرت الأمة الإسلامية بفتن وزلازل، ذاب فيها وخضع لها كثير من الناس إلا خدام السنة الذين قابلوا جميع التحديات وواجهوها، وحفظهم الله وصانهم من الأشرار والفتن، وحفظ بجهودهم وجهادهم هذا الدين الذي وعد بحفظه ونصرته »[2].

« حجتهم صافيه، وأحكامهم راجحة ، لا يخلو باب من أبواب العلم إلا وهم فيه مشاركون، وبه قائمون، فلا يغرنك المهولين ممن يتكلم فيهم

[1] - القاسمي في " قواعد التحديث " ص 59.
[2] - الفريوائي في " جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في الحديث " ص 11.

بكلام المموهين والممخرقين، فهو لا يخرج عن زنديق بليد، أو مبتدع لئيم، أو فاسق عنيد، هم في ليلهم رهبان في العبادة، وفي صباحهم فرسان في الرواية. نسأل الله أن يحشرنا في زمرتهم وأن يحيينا على سنتهم، وأن يبلغنا دارهم»[1].

ثالثاً: جهودهم في حفظ السنة النبوية في صدورهم

لقد حظيت السنة النبوية من أول وهلة، بالاستيعاب والحفظ في الصدور لدى الثلة المباركة، والطائفة المنصورة من لدن صحابة رسول الله r فمن بعدهم من التابعين وأتباعهم، بإحسان ثم من يليهم من علماء الحديث ونقاد الأثر.

فالصحابة - رضي الله عنهم - أولئك الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وفقهوا دين الله وعرفوا أوامره ونواهيه فنصروه، وأقاموا مبانيه، وحافظوا على مراميه ومعانيه، لم يزالوا في جهد ودأب في حفظ ما يصدر عن الرسول r أول بأول ، ما إن يلفظ بلفظاً، أو ينطق بقول وحكمة وبيان إلا تلقفوه منه أسرع ما يكون ، وأوعى لما يقول، فسمعوا وحفظوا الخير الكثير عنه عليه الصلاة والسلام ما صار عزاً للأمة في علمها وفقهها وقيمها.

والصحابة الحفظة كثر وعديدون « وأكثرهم حديثاً أبو هريرة - رضي الله عنه فقد روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً، وروى عنه أكثر من ثمانمائة رجل ؛ وهو أحفظ الصحابة.

ثم عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - روى ألفي حديث وستمائة وثلاثين حديثاً.

ثم أنس بن مالك - رضي الله عنه - روى ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثاً .

ثم ابن عباس - رضي الله عنهما - روى ألفاً وستمائة وستين حديثاً .

ثم جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - ألفاً وخمسمائة وأربعين حديثاً .

[1] - سليم، عمر عبدالمنعم في" الأصول التي بنى عليها الغلاة مذهبهم في التبديع"ص6 20.

ثم أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ روى ألفاً ومائة وسبعين حديثاً .

ثم عائشة الصديقة ـ رضي الله عنهما ـ أم المؤمنين روت ألفين ومائتين وعشرة.

وليس في الصحابة من يزيد حديثه على ألف غير هؤلاء ، وإياهم عنى من أنشد :

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا من الحديث عن المختار خير مضر
أبـــو هريـــرة ســـعد جـــابر أنـــس صديقة وابن عباس كذا ابن عمر» [1]

وكل أصحاب رسول الله r كانوا أئمة يقتدى بهم، ويحفظ عنهم ما كانوا يفعلون ويستفتون فيفتون، وقد سمعوا أحاديث عديدة بين مقل ومستكثر فأدوها كما حفظوها، فكان في ذلك النفع الكبير لسائر الأمة الإسلامية.

ثم تلى الصحابة التابعون لهم بإحسان فخلفوا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وحفظوا عنهم، ونهلوا من دقيق أفهامهم، ونشروا ماتلقوه منهم من الأحكام والسنة والآثار[2].

ثم تلاهم أتباع التابعين وهم الخلف الأخيار، وأعلام الأقطار والأمصار، من أعلم الناس بالحلال والحرام، أخذوا عن التابعين السنة فحفظوها ورعوا

1 ـ ينظر لهذا ولبيان حفاظ الصحابة : البيهقي في " معرفة السنن والآثار " 58/2 والنووي في " التقريب وشرحه التدريب" للسيوطي ص 205 ، والقاسمي في " قواعد التحديث " ص 27 ـ 37 وأبو شهبة ، محمد بن محمد سويلم في " الوسيط في علوم ومصطلح الحديث " ص 505 .

2 ـ **وكان من كبراء التابعين الحفظة والفقهاء** : سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيدبن ثابت ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار الهلالي وهؤلاء هم المعروفون بالفقهاء السبعة من أهل المدينة .

ومن التابعين كذلك من أخذ من العلم ونهل من السنة بحظ وافر : الحسن البصري ، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلقمة بن قيس بن عبد الله فقيه العراق ، وأبو مسلم الخولاني ، ومسروق الأجدع ، وكثير بن مرة الحضرمي الحمصي ، وعطاء بن أبي رباح، والأسود بن يزيد بن قيس ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسواهم . ينظر : الحاكم النيسابوري في " معرفة علوم الحديث " ص 43-44 .

جنابها من الشوائب والبدع، حتى حفظ الله عز وجل بهم الدين على المسلمين ، وصانه عن ثلب القادحين »[1].

ثم الأئمة والحفاظ الجهابذة النقاد الذين جعلهم الله عز وجل علماً للإسلام، وقدوة في الدين[2]. فقد قيض الله تعالى لحفظ سنة نبيه r هؤلاء الأئمة والحفاظ ما يجعل الواقف على تراجمهم، ووصف حفظهم للسنة النبوية أمراً يبهر العقول فأحدهم يوصف بأنه : جبل الحفظ وإمام الدنيا، وآخر يوصف بأنه : يحفظ كالمصحف، وآخر بأنه : لم يخطأ في حديث قط إلا في حرف واحد، وآخر بأنه : يحفظ ألف ألف حديث، ومنهم من يحفظ الأحاديث برواياتها وطرقها واختلافها حتى إنه ليذكر عن الدارقطني الإمام الحافظ أنه أملى كتابه العلل من حفظه[3] !! .

وحصرُ النماذج والمُثل في هذا المضمار يطول، وكله يؤكد مدى عناية وجهود أئمة الحديث وحفاظه بالسنة النبوية حفظاً لها في صدورهم وعملاً بها في جوارحهم .

1- ينظر : ابن حبان في " الثقات " 2/6 ومنهم : مالك بن أنس ، وسفيان بن سعيد الثوري ، وشعبة بن الحجاج، ومسعر ابن كدام ، وسفيان بن عينية، والليث بن سعد ، وعبد الله بن المبارك ،و وكيع بن الجراح ، والفضيل بن عياض ، ويحيى بن سعيد القطان ، وسواهم .

2 ـ كأحمد بن حنبل ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ويحيى بن معين، والبخاري، ومسلم ، والدا رقطني ، وأبي يعلى الموصلي ، وعلي بن المديني ، وأبي زرعة، وأبي حاتم ، والدارمي ، وأصحاب السنن الأربعة ، والبيهقي ، والحاكم النيسابوري وسواهم لا يحصيهم إلا الله عز وجل.

3 **ـ قاله البرقاني،** ينظر لذلك : الذهبي في " تذكرة الحفاظ " 133/3 وقال عقب ذلك : " قلت: هنا يخضع للدارقطني ولسعة حفظه الجامع لقوة الحافظة ولقوة الفهم والمعرفة، وإذا شئت أن تبين براعة هذا الإمام الفرد فطالع العلل له فإنك تندهش ويطول تعجبك . اهـ

المبحث الثالث

جهود المحدثين في حفظ السنة النبوية بتدوينها وكتابتها

يركزُ هذا المبحث على بيان جهود علماء الحديث في حفظ السنة النبوية عن طريق تدوينها في السطور، فكما أنهم قد حفظوها في صدورهم، وعنوا بذلك عناية فائقة فإنهم أيضاً قد حفظوها في دواوينهم وتواليفهم وصحفهم وكان ذلك على مراحل وطرق متعددة ، فمن ذلك:

أولاً: الصحف المكتوبة على عهد رسول الله r وأسباب قلتها

من المؤكد أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كتبوا طائفة من الأحاديث في حياته r ؛ حفظاً للسنة وبداية في تدوين تعاليمها وإن كانت على قلةٍ، فمنهم من كتبها بإذن خاص من الرسول r ، مستثنى من النهي العام الوارد في ذلك، بيد أن أكثرهم قيدوا ما جمعوه في السنوات الأخيرة من حياته r ، بعد أن أذن بالكتابة لكل من رغب فيها وقدر عليها، وهناك أخبار عن هذه الصحف تتفاوت أسانيدها قوة وضعفاً[1]، ومع أن

---

[1] ـ ينظر لتفصيل ذلك : "علوم الحديث ومصطلحه " د . صبحي الصالح ص 23 والسباعي في " السنة ومكانتها " 103/1 .

ومن تلكم الصحف : أن سعد بن عبادة الأنصاري كان يملك صحيفة جمع فيها طائفة من أحاديث الرسول r وسننه ، وكان ابن هذا الصحابي الجليل يروى من هذه الصحيفة . ذكر ذلك الترمذي في "السنن" كتاب الأحكام، باب : ما جاء في اليمين مع الشاهد ، برقم 1343 وصححه فيه الألباني .

وما روى البخاري كما في عدة أبواب من "صحيح البخاري" منها في كتاب الجهاد . باب: لا تمنوا لقاء العدو. برقم 2861وباب: إذا لم يقاتل أول النهار .برقم 2804 وباب: الصبر على القتال برقم 2678: أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبي أوفى الذي كان يكتب الأحاديث بيده ، وكان الناس يقرؤون عليه ما جمعه بخطه.

وسمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ كان قد جمع أحاديث كثيرة ورثها ابنه سليمان ورواها عنه وهي ـ على ما يظن ـ الرسالة التي بعثها سمرة إلى بنيه، وهي التي يقول فيها ابن سيرين " في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير". ذكره ابن حجر في "تهذيب التهذيب" 4/ 198

وكان لجابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ صحيفة أيضاً كما ذكره ابن سعد في " الطبقات " 5/ 344 والذهبي في " تذكرة الحفاظ " 1/ 110 . ويحتمل أن يكون في بعض أحاديثها ذكر حجة الوداع التي ألقي فيها النبي r خطبته الجامعة ، ويوشك هذا الاحتمال أن يصبح يقيناً إذا عرفنا أن التابعي الجليل قتادة بن

أسانيد بعضها قوية جداً فنحن لا نملك اليوم شيئاً محسوساً من آثارها، وإن كنا لا نرتاب في تحقيق كتابتها في حياته صلوات الله عليه وسلامه.

ويرجع سبب قلة الكتابة في حياته r إلى عدة أمور:

أحدها: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم، خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن الكريم.

الثاني: سعة حفظهم وسيلان أذهانهم؛ ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة.

والثالث: أنهم كانوا منصرفين إلى تلقي القرآن الكريم، مشغولين بجمعه في الصدور والسطور، وكان كتاب الله يستغرق جل أوقاتهم، كما كان يملك عليهم كل مشاعرهم[1].

ثم إنه لما انتشر الإسلام، واتسعت البلاد، وتفرقت الصحابة في الأقطار، ومات معظمهم، وقل الضبط احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة في الأجزاء والكتب وكثر ذلك وعظم نفعه، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الآخرة.

ثانياً: عصر الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ

كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ التشدد في الرواية والتورع عن الكتابة امتداداً لأراء إخوانهم الصحابة في عصر الرسول r .

دعامة السدوسي كان يكبر من قيمة هذه الصحيفة ويقول : « لأنا بصحيفة جابر أحفظ مني من سورة البقرة . ذكره البخاري في " التاريخ الكبير " 4/ 182 .

ومن أشهر الصحف المكتوبة في العصر النبوي" الصحيفة الصادقة " التي كتبها جامعها الصحابي عبد الله بن عمرو العاص ـ رضي الله عنهما ـ من رسول الله r . كما ذكره ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" 1/ 73 .

ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه صحيفة كذلك فإن سئل : هل عندكم كتاب ؟ فأجاب : لا، إلا كتاب الله تعالى أو فهم أعطيه رجل مسلم وما في هذه الصحيفة . قيل: وما في هذه الصحيفة ؟ قال:« العقل ، وفكاك الأسر ، ولا يقتل مسلم بكافر» . أخرجه البخاري ، كتاب : الجهاد والسير، باب : فكاك الأسير، برقم 3047 . فهذه جملة مما كتب على عهده r من الكتب والصحف ، وهي تبدو قلة قليلة ما إذا قورنت بما حفظ من الأحاديث في الصدور ، وما تلا عهد النبوة من التدوين .

1 ـ ينظر: السيوطي في" تدريب الراوي " 1/ 93 والمباركفوري في " تحفة الأحوذي " 24-25 وصبحي الصالح في "علوم الحديث ومصطلحه" ص 18.

بل كانوا ـ أيضاً ـ يشددون حتى في رواية الحديث أيما تشديد حتى إن بعضهم ليطلب الشهادة على سماع الحديث من رسول الله r [1].

ولا يعني هذا تحريماً للكتابة من الرواية للحديث ؛ بل داخل ضمن إطار التورع وخشية إعجاب الناس بما يكتبون ويروون مع انشغالهم بها عن القرآن الكريم .

ثالثاً: عصر التابعين وتابعيهم

وإذا انتقلنا إلى عصر التابعين هالتنا تلك الروايات المتضافرة على كراهة كبار التابعين وأوساطهم و أواخرهم للكتابة، ثم لا نلبث أن نجد كثيراً منهم يتساهلون في أمرها، أو يرخصون بها، أو يحضون عليها، ونجدها أصبحت أمراً « رسمياً » في عصر أواسطهم، فيُخيل إلينا أن التضارب قائم في هذه الروايات، وأنه لا يمكن أن يستنتج منها حكم تاريخي موثوق، ولكن الموضوع أهون من هذا، فإن الأسباب التي حملت الخلفاء الراشدين على الكراهة هي التي حملت التابعين عليها، فإذا بطلت أسباب هذه الكراهة قال الجميع قولاً واحداً، وأخذوا به وأجمعوا عليه : وهو جواز كتابة العلم، بل إيثار تقييده والتشجيع عليه .

وأغلب الظن بل تكاد تجمع الروايات أن أول من فكر بالجمع والتدوين من التابعين هو الخليفة الورع التقي عمر بن عبد العزيز[2] حين أمر رسمياً بالشروع في تدوين الحديث، وقد استند إلى آراء العلماء، ولعله لم يقدم على ذلك إلا بعد أن استشارهم أو اطمأن ـ على الأقل ـ إلى تأييد كثرته، وإن كانت الأخبار المتضافرة توحي بتفرده في هذه الفكرة لما له في القلوب من منزلة ، ولاسيما بين معاصريه الواثقين بتقواه وورعه.

---

1 ـ فلم يعط أبو بكر الجدَّةَ سُدُسَ الميراث إلاَّ بعد أنْ شهد المغيرة بن شُعبة ومحمد بن مسلمة أنَّ الرسول أعطاها السُدُس، ولم يتساهل عمر مع أبي موسى الأشعري حين روى حديث الاستئذان، بل هدّدَهُ بتغزيره إنْ لم يشهد أحد من الصحابة على صحة سماعه. ينظر : صبحي الصالح " علوم الحديث ومصطلحه " ص40 .

2 ـ هو : الإمام الحافظ المجتهد الزاهد العابد السيد أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الأموي المدني ثم المصري ، الخليفة الراشد أشج بني أمية ، مناقبه كثيرة وعديدة ، ت سنة 101هـ وله أربعون سنة إذ كانت خلافته سنتان ونصف .

ينظر : الذهبي " سير أعلام النبلاء " 576/5 وابن حجر " تقريب التهذيب " 431/1 .

ويتضح من جملة الأخبار المروية في هذا الشأن أن خوف عمر من دروس العلم وذهاب أهله هو الذي حمله على الأمر بالتدوين، فإنه كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم[1] يأمره: « انظر ما كان من حديث رسول الله r ، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة، فاكتبه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله »[2].

وعمرة المذكورة هنا هي عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية وقد ضم إليها في بعض الروايات اسم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وكلاهما من تلاميذ عائشة، فكانا أعلم الناس بأحاديثها عن رسول الله r .

ولقد قام أبو بكر بن حزم بما عهد إليه عمر، ولكن هذا الخليفة العظيم لحق بربه قبل أن يطلعه عامله على نتائج سعيه.

على أن عمر كان قد كتب إلى أهل الآفاق وإلى عماله في الأمصار بمثل ما كتب إلى ابن حزم، وكان أول من استجاب له في حياته وحقق له غايته عالم الحجاز والشام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المدني[3] الذي دون له في ذلك كتاباً، فغدا عمر يبعث إلى كل أرض دفتراً من دفاتره[4].

وحق للزهري أن يفخر بعمله قائلاً: «لم يدون هذا العلم أحد قبل تدويني»[5].

ويُخيّل إلى الباحث عندما يبلغ هذه المرحلة من الدراسة أن فكرة كره التدوين قد اختفت إلى الأبد، وأنها في هذا العصر بدأت تنسى، ثم لا

1 ـ هو : أبو بكر بن محمد بن عمرو الأنصاري ابن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، أمير المدينة، ثم قاضي المدينة، أحد الأئمة الأثبات ، ت سنة 120هـ .
ينظر : الذهبي في " سير أعلام النبلاء " 313/5 وابن حجر في " تهذيب التهذيب" 12 / 38.
2 ـ ينظر : ابن سعد في " الطبقات " 2/2 ص 134 .
3 ـ هو : محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، أبو بكر ، الفقيه ، الحافظ ، متفق على جلالته وإتقانه ، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة ، مات سنة خمس وعشرين، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين .
ينظر : ابن حجر في " تقريب التهذيب " 2 / 552 .
4 ـ ينظر : ابن عبد البر في " جامع بيان العلم وفضله " 76/1 .
5- ينظر : الكتاني في "الرسالة المستطرفة" ص3 0

يلبث أن يسمع بنغمتها الرتيبة تتعالى حتى على لسان الذين رخصوا في التدوين أو حضوا عليه أو أسهموا فيه[1] .

وإذا كان أواسط التابعين قد بدؤوا يحذرون وضع الوضاعين فإن أواخر التابعين أمسوا يصادفون كثيراً من نماذج الوضاعين وصور وضعهم تأييداً للفرق والشيع المختلفة، فقد أمسى لزاماً أن يشيع التدوين وينشر في عصرهم حفظاً للنصوص النبوية من عبث العابثين ثم في عصر من بعدهم إلى وقتنا الحاضر.

ونستطيع القول إجمالاً بأن تدوين الحديث النبوي مرّ بمراحل:

المرحلة الأولى: كانت في (الصدور) وفيها بعض التدوين الكتابي على قلة وذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه والتابعين ومطلع الخلافة الأموية وقد قدمنا الكلام عن هذا .

والمرحلة الثانية: مرحلة التدوين في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز كما مر ذكره أيضاً، وميزة التدوين في هذا العصر أن الحديث كان ممزوجا غالباً بفتاوى الصحابة والتابعين وهذا ما تقتضيه طبيعة البداءة في كل أمر جديد[2].

والمرحلة الثالثة: مرحلة تجريد الحديث النبوي مما كان ممزوجاً به من آثار الصحابة وفتاوى التابعين وذلك في عصر أتباع التابعين، ممن كانوا

1 ـ فشاع التدوين في الجيل الذي يلي جبل الزهري، وكان أول من جمعه بمكة ابن جريج (- 150 هـ) وابن إسحاق (- 151 هـ) وبالمدينة سعيد بن أبي عروبة (- 156 هـ) والربيع بن صبيح (- 160 هـ) والإمام مالك (- 179 هـ) وبالبصرة حماد بن سلمة (- 167 هـ) وبالكوفة سفيان الثوري (- 161 هـ) وبالشام أبو عمرو الأوزاعي (- 157 هـ) وبواسط هشيم (- 173 هـ) وبخراسان عبد الله بن المبارك (- 181 هـ) وباليمن معمر (- 154 هـ) وبالري جرير بن عبد الحميد (- 188 هـ) وكذلك فعل سفيان بن عيينة (-198 هـ) والليث بن سعد (- 175 هـ) وشعبة بن الحجاج (- 160 هـ).

وهؤلاء جميعا كانوا في عصر واحد ولا يدرى أيهم سبق إلى ذلك، وكان صنيعهم في التدوين أن يجمعوا حديث رسول الله مختلطا بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض في كتاب واحد. ينظر : السيوطي في " تدريب الراوي " 93/1 والسباعي في " السنة ومكانتها " ص 105 .

2 ـ ومن التصانيف في هذه المرحلة : موطأ مالك إمام المدينة (179هـ) ومصنف ابن أبي شيبة (ت 235هـ) ومصنف عبدالرزاق الصنعاني (ت 211هـ) .
وهذه الكتب مرتبة على الأبواب .

على رأس المئتين، فعني العلماء بتأليف المسانيد خالية من فتاوى الصحابة والتابعين، مقصورة على السنة النبوية وحدها[1].

المرحلة الرابعة : مرحلة الترتيب والتهذيب مع أواخر القرن الرابع الهجري وهي مستمرة إلى يومنا هذا، تكتب على وجه التنسيق والتهذيب والشرح في مؤلفات تتناسب مع أهل كل عصر ومصر[2].

وهكذا، مرّ الحديث النبوي بمراحل طويلة حتى وصل إلينا محرراً مضبوطاً، وساعدت الطابعة الحديثة على نشر هذا التراث الإسلامي العظيم. والله تعالى أعلم.

رابعاً: موقف المستشرقين من تدوين الحديث[3]:

ليس علينا إذن أن ننتظر عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز حتى نسمع للمرة الأولى كما هو الشائع ـ بشيء اسمه تدوين الحديث أو محاولة لتدوينه. وليس علينا أن ننتظر العصر الحاضر لنتعرف بتدوين الحديث في عصر مبكر جرياً وراء بعض المستشرقين كجولدزيهر goldziher وشبرنجر sprenger ؛ لأن كتبنا وأخبارنا ووثائقنا التاريخية لا تدع مجالاً للشك في تحقيق تقييد الحديث في عصر النبي r نفسه كما سلف ذكره، وليس على رأس المائة الثانية للهجرة كما يمن علينا هذان المستشرقان، وهي تنطق ـ فوق ذلك ـ بصدق جميع الوقائع والأقوال والسير والتصرفات التي تنطوي عليها الأحاديث الصحاح والحسان في كتب السنة جميعاً، لا في بعضها دون بعض كما يظن دوزي Dozy .

إن هؤلاء المستشرقين لم يتجشموا جمع الأدلة والبراهين على إثبات تدوين السنة لإسداء خدماتهم الخاصة إلينا وإلى أدبنا وشريعتنا، بل لهم أغراض إليها يهدفون ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

---

1 ـ وأول من ألف تلك المسانيد أبو داوود الطيالسي (204هـ) ويعتبر مسند أحمد بن حنبل (241هـ) أوفى تلك المسانيد وأوسعها .
وظهرت الأصول الستة البخاري ومسلم والسنن الأربع في هذه المرحلة .
2 ـ ومن مُثْلِهِ : "جامع الأصول " لابن الأثير ، مرتب على الأبواب جمع بين أحاديث الأصول الستة. وجمع أبو عبد الله الحميدي الصحيحين على ترتيب المسانيد.
3 ـ ينظر لهذا المحور : صبحي الصالح في " علوم الحديث و مصطلحه " ص 33 وما بعدها.

أما جولدزيهر فعقد فصلاً خاصاً لكتابة الحديث في أبحاثه Muhammedanische Studien التي ترجم المجلد الثاني منها إلى الفرنسية [1].

وفي هذا الفصل (250 ـ 241 . P) أتى بأدلة كثيرة على تدوين الحديث في أول القرن الهجري الثاني، وكان في الفصل الأول من الكتاب نفسه (12 ـ 10 . P) قد سرد طائفة من الأخبار تشير إلى بعض الصحف التي دونت في عهد الرسول r ، ولكنه أحاطها بكثير من التشكك في أمرها، والريبة في صحتها، وقد رمى بهذا إلى غرضين :

أحدهما: إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، لتعويل الناس في القرن الهجري الثاني على الكتابة.

والآخر: وصم السنة كلها بالاختلاف والوضع على ألسنة المدونين لها الذين لم يجمعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ويعبر عن آرائهم ووجهات نظرهم في الحياة . ولذلك أطلنا الحديث عن الصحف المكتوبة في عهده صلوات الله عليه لنضع بين يدي القارئ الأسانيد التاريخية الموثوقة التي تثبت بدء الشروع في كتابة الأحاديث في حياته عليه الصلاة و السلام، وتؤكد تسلسل الرواية حفظاً وضبطاً في الوقت نفسه .

وشبرنجر في كتابه « الحديث عند العرب »[2] يحاول تفنيد المعتقد الخاطئ عن وصول السنة بطريق المشافهة وحدها ، ويجمع الكثير من الأدلة على تدوين الأحاديث والتعويل على هذا التدوين في عصر مبكر يبدأ أيضاً في مطلع القرن الهجري الثاني وليس في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وغايته لا تختلف في شيء عن غاية جولدزيهر 0

وأما دوزي فلعله يخدع برأيه المعتدل كثيراً من علمائنا فضلاً عن أوساط المتعلمين فينا، فقد كان هذا المستشرق يعترف بصحة قسم كبير

---

[1] - ترجمها Leon سنة 1952 بعنوان :
Etudes sur la Tradition lslamique, Maisonneuve, Paris

[2] - sPrenger, das Traditionswesen dei den Arabern, 1856, 1- 17 dans Uber bas Traditionswesen beiden Arobern

من السنة النبوية التي حفظت في الصدور ودونت في الكتب بدقة بالغة وعناية لا نظير لها «وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث - فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التي لا يرقى إليها الشك (ونصف صحيح البخاري على الأقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلواً في النقد) مع أنها تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها»[1] .

فلم يكن غرض هذا المستشرق خالصاً للعلم والبحث المجرد حين مال إلى الاعتراف بصحة ذلك النصيب الكبير من السنة، وإنما كان يفكر أولاً وآخراً بما اشتملت عليه هذه السنة الصحيحة، من نظرات مستقلة في الكون والحياة والإنسان، وهي نظرات لا يدرأ عنها استقلالهاالنقد والتجريح لأنها لم تنبثق من العقل الغربي المعجز، ولم تصورحيا ة الغرب الطليقة من كل قيد!

لن نكون عالة على هؤلاء المستشرقين في تحقيق شيء يتعلق بماضي ثقافتنا، وسنكون منهم على حذر في كل ما يؤرخونه لحضارتنا، فما انتظرنا اعترافاتهم بتدوين الحديث وما خفيت علينا الغاية من هذه الاعترافات، وسواء علينا أأقروا أم جحدوا، فإن رب الدار أدرى بالذي فيها، وإن كتبنا الأمينة الموثوقة نطقت بوجود صحف مكتوبة في الحديث على عهده عليه الصلاة و السلام، وما يدرينا لعل جميع هذه الصحف ماثلة في كتب المسانيد في بطون مخطوطات الحديث المبثوثة في مكتبات العالم كما مثلت في مسند أحمد بن حنبل صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص، وصحيفة أبي هريرة لهمام[2] .

---

[1] - عبارة دوزي في الأصل أوقح من أن نوردها على حالها . ومن رغب في الإطلاع على آراء هؤلاء الناس فعليه بكتاب :

Dozy, Essai sur l,Histoire de l,rlslamism ; traduit par v. Chauvin, p.124.

[2] - هو : همام بن منبه بن كامل الصنعاني ، أبو عتبة، أخو وهب ، ثقة ، ت سنة 132هـ على الصحيح . ينظر : ابن حجر في " تهذيب التهذيب " 11 / 67 و " تقريب التهذيب " 574/1 .

ومن الآراء التي تخبط فيها المستشرقون على غير هدى من منطق سليم أو نقل صحيح أن الأحاديث الواردة في شأن تدوين العلم حثاً عليه أو نهياً عنه إنما كانت أثراً من أثار تسابق أهل الحديث في جانب وأهل الرأي في جانب آخر إلى وضع الأقوال المؤيدة لنزعتيهم المتباينتين .

فأهل الحديث ينزعون إلى جواز تقييد السنة ليكون مستنداً بين أيديهم لصحتها والاحتجاج بها، وأهل الرأي - على العكس - ينزعون إلى النهي عن الكتابة وإثبات عدم تقييد العلم تمهيداً لإنكار صحته وإنكار الاحتجاج به .

وقد تولى كبر هذا الضلال العلمي جولدزيهر goldziher بعد اطلاعه على مقال في « نشأة الكتابة وتطورها » لسلفه المستشرق شبرنجر sprenger الذي اكتشف سنة 1855 كتاب «تقييد العلم» للخطيب البغدادي. غير أن منهج المستشرقين يختلف اختلافاً جوهرياً في هذا الموضوع .

أما شبرنجر فقد استنتج من نشأة الكتابة عند العرب ومن خلال النصوص الواردة في الكتاب المذكور أن الحديث لابد أن يكون قد دون منه كثير في عهد الرسول r وكان هذا ما يعنيه أولاً وبالذات.

وأما جولدزيهر فقد ارتاب في صحة جميع تلك النصوص، ورأى أن بعضها وضعه أهل الحديث، وبعضها الآخر وضعه أهل الرأي !

والمقصود أنه من خلال ما تقدم من المحاور السابقة في هذه القضية يتبين لنا تواتر وقوع الكتابة في عهده صلى الله عليه وسلم، وأنه قد كتب من حديثه r في حياته شيءٌ ليس بالقليل، وأذن لبعض الصحابة أن يكتبوا أحاديثه -بعد أن كان ينهي عن كتابتها في أول الإسلام؛ خشية اختلاطها بالقرآن .

وما شاع في أوساط بعض المتفقهين والمثقفين من التشكيك في ثقة التدوين وصحته في العصر النبوي والصحابة رضي الله عنهم، يعود سببه لعدم فهم كلام أهل العلم على حقيقته، وعدم استقصاء وإحصاء ما ثبت من ذلك من مظانه ومراجعه الموثوقة، وقد تولى كبر هذه المقالة ونشرها

والدعاية لها بعض المستشرقين ـ كما سلف ذكره ـ للكيد للإسلام والطعن في أعظم مصدرٍ من مصادره بعد القرآن، ألا وهي السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

وملخص الشبهة والتشكيك هو : أن الأحاديث لم تكتب في عهده صلى r كما هو الشأن بالنسبة للقرآن، حيث لم يأمرr بذلك، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى النهي والأمر بمحو ما كُتب منها، وأن الأمر استمر على ذلك في عصر الصحابة والتابعين، فظلّت الأحاديث تنقل شفاهاً لمدة مائة عام أو أكثر، حتى جاء الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، فأمر بتدوينها، فكان أول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري، وقد أدّى عدم تقييد السنة هذه الفترة الطويلة إلى احتمال ضياع كثير منها، واحتمال حصول الخطأ والنسيان، أو التبديل والتغيير فيها، مما يورث عدم الاعتماد عليها والاحتجاج بها[1].

والجواب عن هذه الشبهة في عدة نقاط :

أولاً: أن إنكار تقييد الحديث وكتابته في عهده r لا يمكن، حيث إنه قد تعددت الأحاديث والروايات وكثرت، مما يبلغ بها درجة التواتر المفيد للعلم القطعي اليقيني في إثبات وقوع الكتابة للأحاديث في عهده r ـ كما مرَّ ذكره ـ وقد كان ذلك آخر الأمرين منه r ، بعد أن كان ينهى عن كتابتها في أول الإسلام خشية اختلاطها بالقرآن .

ثانياً: أن من الحكمة أيضاً في أمره r بكتابة القرآن دون الحديث؛ لأن المقصود بالحديث هو المعنى، ولا يتعلق في الغالب حكمٌ بالمبنى، بخلاف القرآن، فإن لألفاظه مدخلاً في الإعجاز، فلا يجوز إبدال لفظٍ منه بلفظٍ آخر، ولو كان مرادفاً، بل لا يجوز إبدال حرف منه بحرف آخر.

ولما لم تكن السنة بهذه المثابة: لا ترتيب بين الأحاديث بعضها مع بعض، وليست بمعجزة، ولم يتعبدنا الله تعالى بتلاوة لفظها، وأجاز لنا تغييره

1- ينظر : العبودي ، ناصر بن إبراهيم في " كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين النهي والإذن" ص 63 .

ما دامت المحافظة على المعنى متحققة، سواءٌ أكان ذلك بنفس اللفظ الصادر عن رسول الله r أم بغيره، لأجل ذلك كله لم يأمر r بكتابة الحديث[1].

ثالثاً: **أنه ما إن توفي النبي r حتى كثر من يكتب الحديث من الصحابة والتابعين، حيث فهموا إذنه العام لكل من يرغب في ذلك ويقدر عليه، يدل عليه أنه قبيل وفاته أراد أن يكتب للمسلمين كتاباً لا يضلون بعده أبدا، فلم ير بذلك بأساً بعد أن أمن اختلاط السنة بالقرآن**[2].

رابعاً: **أن تدوين الحديث الذي دعا إليه عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- على رأس المائة الأولى، إنما كان المقصود به التدوين العام للأحاديث؛ ليكون هناك كتبٌ معتمدةٌ تُجمع وترتب فيها الأحاديث، ويتداولها عامة الناس، وليس هذا يعني أنّ الأحاديث لم تدوَّن من قبل، وهذا ما يرمي إليه الحافظ ابن حجر**[3] **حين يقول: " إن آثار النبي r لم تكن في عصر أصحابه وكبار من تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة ... "(4) يعني : تدويناً عاماً منسقاً، وبدعوته هذه ينتهي الخلاف الذي وُجد عند الصدر الأول في كتابة الحديث، ويستقر الأمر على الإجماع على جواز كتابة الحديث، بل واستحبابه.**

1 ـ ينظر: " توجيه النظر إلى أصول الأثر" لطاهر الجزائري 1/ 45، وكتاب "بيان الشبه التي أوردها بعض من ينكر حجية السنة والرد عليها" لعبد الغني عبد الخالق ص 436.

2 ـ ينظر: كتاب: "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" للدكتور الأعظمي 1/ 92، وكتاب "بحوث في تاريخ السنة المشرفة" للدكتور أكرم العمري ص 294، 296، العبودي ، ناصر بن إبراهيم في " كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين النهي والإذن" ص 63 فما بعدها .
فقد ذكر الأول أمثلةً كثيرةً للصحابة وكبار التابعين ممن توفي قبل المائة أو قريباً منها، ولصغار التابعين ممن توفي بعد ذلك، ممن كتب الحديث أو كتب عنه، أو كان له صحيفةٌ أو كتاب.

3 ـ هو : أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي المصري الإمام الحافظ المحدث شيخ الإسلام ، صاحب التصانيف النافعة " كشرح البخاري " و " تعجيل المنفعة " و " النكت على ابن الصلاح " وغيرها ، ت سنة 852هـ .
ينظر : ابن العماد في " شذرات الذهب " 9/ 395 ، والسيوطي ، " طبقات الحفاظ" ص 579 .

4ـ ينظر: "هدي الساري مقدمة فتح الباري" ص 6.

ملخص البحث

نعني بالسنة النبوية: الأقوال المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام والأفعال والتقارير أو الصفات الخلقية أو الخُليقة، والأحكام الشرعية الثابتة عنه، والعقائد.

حظيت السنة بمكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ومقام كريم بين العلوم من حيث حجيتها والأمر باتباعها وأنها تعدُ الأصل الثاني للتشريع ، وليس يؤثر فيها بعض آراء المستشرقين في نقدها والقدح فيها ؛ إذ ليس لهم إلا مجرد القول الباطل والشبه المتهافتة؛ فإن السنة النبوية تعتبر بياناً للقرآن الكريم، ومؤكدة لأحكامه، ومقررة لأحكام جديدة ليست فيه، ودعوى الاقتصار على القرآن الكريم من دون السنة النبوية انحراف عن المنهج القويم، وزيغ عن سبيل المؤمنين ، فالسنة قرينة القرآن، والقرآن نفسه أمر في مواضع عديدة منه باتباع الرسول r وطاعته والاقتداء به، وبيّن الرسول الله r أنه سيأتي أناس يدعون بهذه الدعوى، وأنهم ليسوا ممن يعظم الله ولا رسوله r وأنهم يريدون بذلك نبذ شريعة الله تعالى وتعطيلها .

حفظت السنة النبوية وكان لهذا الحفظ الأهمية البالغة والثمار العظيمة؛ إذ العناية بالرواية وحفظ حديث رسول الله r يُعد حفظاً لشريعة الله تعالى فهي جزء لا يتجزأ من الوحي المنزل على رسول الله r ، ولقد اعتنى أهل الإسلام بنقل السنة النبوية بالأسانيد والروايات بحيث شهد ذلك تاريخياً بأسبقية المسلمين وتقدمهم على الأمم في حفظ دينهم وسنة نبيهم، ولا سيما علماء الحديث الذين تبوأوا مكانة سامية وشرفاً سابغاً، ومن شرف علم الحديث أن يَشْرُفَ بأهله وحامليه، فعلماء الحديث تشملهم النصوص المتعددة في الكتاب السنة الدالة على فضل العلم وأهله .

إن التأريخ يشهد لجهود علماء الحديث في حفظ السنة النبوية وأياديهم البيضاء على الأمة وشكر مساعيهم في ذلك، فلقد لعبوا دورا أساسياً ومحورياً في حفظها ووصولها إلينا صافية نقية وقد سلكوا طريقتين

في حفظهم السنة النبوية تمثلتا بحفظ السنة النبوية في الصدور، وحفظها عن طريق الكتابة والضبط والتدوين، ومرَّ للتدوين أدوارٌ ابتداء بالصحف المكتوبة على عهد النبي r ثم عصر الخلفاء الراشدين ثم عصر التابعين وأتباعهم والمتأخرين عن عصر الرواية ، وكان للمستشرقين موقفٌ من تدوين الحديث النبوي غرضهم منه إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، ووصم السنة كلها بالاختلاف والوضع على ألسنة المدونين، متناسين الأسانيد التاريخية الموثوقة التي تثبت بدء الشروع في كتابة الأحاديث في حياته عليه الصلاة و السلام، وتؤكد تسلسل الرواية حفظاً وضبطاً وتوثيقاً في الوقت نفسه ثم تدوينه وفق أسس ومعايير دقيقة وصارمة بأسانيد معتبرة جعلت خصيصة لهذه الأمة تميزت بها عن سائر الأمم.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أسد الغابة في معرفة الصحابة . علي بن محمد بن الأثير الجزري .ط: دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة بدون .

3- إرشاد الفحول إلى علم الأصول . محمد بن علي الشوكاني .ط: دار الكتب الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى 1414 ـ 1994م .

4- الإرشاد في معرفة علماء الحديث . الخليل بن عبد الله الخليلي .ط: مكتبة الرشد ـ الرياض . الأولى 1409 ـ 1989م .

5- الإصابة في تمييز الصحابة . أحمد بن حجر العسقلاني . ط:دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى 1415- 1995م .

6- تاريخ بغداد . أحمد بن علي الخطيب . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى 1417 ـ 1997م.

7- التاريخ الكبير . محمد بن إسماعيل البخاري .ط: دار الكتب العلمية .بيروت . الطبعة بدون.

8- تحفة الأحوذي (المقدمة منه) . محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري .ط: دار الفكر . ضبط / عبد الرحمن محمد عثمان.

9- تدريب الراوي شرح تقريب النواوي. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ط : مكتبة دار التراث . القاهرة . الثانية 1398ـ 1978م.

10- تذكرة الحفاظ . محمد بن عثمان الذهبي . ط: دار الكتب العلمية. بيروت. بتحقيق المعلمي اليماني.

11- تقريب التهذيب . أحمد بن حجر العسقلاني .ط: دار الرشيد .سوريا. الطبعة الأولى 1406- 1986م.

12- التقريب للنووي مع التدريب للسيوطي .ط: مكتبة دار التراث .القاهرة . الثانية 1398- 1978م.

13- جامع بيان العلم وفضله . يوسف بن عبد البر. ط: دار ابن الجوزي. الدمام . الطبعة الرابعة. 1419- 1998م.
14- الجامع الصحيح . محمد بن إسماعيل البخاري . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى 1410- 1989م.
15- الجامع الصحيح . لمسلم بن الحجاج النيسابوري .ط:دار إحياء التراث العربي . بيروت .تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي.
16- الحطة في ذكر الصحاح الستة " صديق حسن خان. الناشر: دار الكتب التعليمية – بيروت . الطبعة : الأولى، 1405هـ/ 1985م.
17- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة . لمحمد بن جعفر الكتاني. ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الرابعة 1406 هـ ـ 1986م.
18- سلسلة الأحاديث الصحيحة 0 لمحمد ناصر الدين الألباني. ط: مكتبة المعارف 0الرياض0 الطبعة 1415- 1995 م.
19- سنن أبي داود 0 لسليمان بن الأشعث السجستاني، بتحقيق الألباني. ط: مكتب التربية العربي. 1409- 1989م.
20- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي . السباعي، مصطفى بن حسني . الناشر: المكتب الإسلامي: دمشق - سوريا، بيروت – لبنان . الطبعة: الثالثة 1402 هـ - 1982م.
21- السيرة النبوية. لابن هشام، ط: دار القلم. بيروت، اعتناء : مصطفى السقا وآخرون.
22- شذرات الذهب، عبد الحي بن أحمد بن العماد، ط: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى 1406- 1986م.
23- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي. ط: المكتب الإسلامي. بيروت، الثانية 1403- 1983م.
24- شرح علل الترمذي. عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي . ط: دار الملاح. الطبعة الأولى 1398- 1978م.

25- شرف أصحاب الحديث . الخطيب، أحمد بن ثابت . ط : دار إحياء السنة النبوية - أنقرة، تحقيق: د/ محمد سعيد خطي اوغلي.
26- شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي. ط: دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى 1416-1996م.
27- صحيح مسلم (المقدمة). يحيى النووي. ط: دار الريان. القاهرة .
28- طبقات الحفاظ. عبد الرحمن السيوطي . ط: مكتبة الثقافة الدينية. بورسعيد . الطبعة 1417- 1996م.
29- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الزهري. ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . الطبعة بدون.
30- علوم الحديث ومصطلحه . صبحي الصالح. ط: دار العلم للملايين. بيروت . الطبعة السادسة عشرة 1986م.
31- قواعد التحديث . محمد جمال الدين القاسمي .ط: دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى 1407- 1987م.
32- كتاب الثقات. محمد بن حبان ألسبتي. ط : مؤسسة الكتب الثقافية. الأولى 1393- 1973م.
33- كتاب المجروحين . محمد بن حبان البستي . ط: دار المعرفة. بيروت. 1412- 1992م.
34- كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين النهي والإذن. ناصر بن إبراهيم العبودي. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
35- الكفاية في علم الرواية. أحمد بن علي الخطيب. من منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
36- لسان العرب . لابن منظور . ط: دار إحياء التراث العربي . الطبعة الثالثة 1419- 1999م.
37- مسند أحمد بن حنبل . لأحمد بن حنبل . ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت . ترتيب البنا.

38- **معرفة علوم الحديث . محمد بن عبد الله الحاكم. ط: دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية** 1397- 1977م.

39- **هدي الساري مقدمة فتح الباري . أحمد بن حجر العسقلاني. ط: دار الكتب العلمية .بيروت . الطبعة الأولى** 1410- 1989م.

- **مراجع انجليزية:**

1- sPrenger, das Traditionswesen dei den Arabern, 1856, 1- 17 dans Traditionswesen beiden Arobern bas Uber

2- Dozy, Essai sur l,Histoire de l,rlslamism ; traduit par v. Chauvin, p.124.